١ ـ نشأة الدرامة الانجليزية

للأســـتاذ دريني خشبة

لا نرى بدا ، ونحن ندعو إلى سلك الأدب المسرحي في الأدب العربي ، من أن نضع موجزاً نافعاً عن نشأة الدرامة في كل من الممالك الأوربية بين أيدي أدبائنا الشباب الذين نعتمد عليهم في إحداث تلك الثورة في الأدب العربي ، أولئك الشباب الذين لم يتيسر لهم تعلم لغة أجنبية ينفذون منها إلى الثقافات الأدبية الحديثة ، أو الذين تعلموا إحدى تلك اللغات ، ثم صرفتهم شواغلهم الكثيرة عن التفرغ لدراسة آدابها ، وأدبها المسرحي بوجه خاص ، وسنحاول في هذه الخلاصات أن نجعلها مشوقة مثيرة لحب الاستطلاع في نفوس القراء ، بحيث نباعد بينها وبين الجفاء العلمي ما وسعنا إلى ذلك من سبيل ...

أما لماذا آثرنا أن نبدأ بنشأة الدرامة الإنجليزية فذلك لما لها من المنزلة التي لا تجحد بين زميلاتها من الدرامات العالمية ؛ ثم لأنها في نظري على الأقل ، توائم الكثير من مشاربنا في الحياة بما نتوخاه من الفضيلة ، وتفيض به من الرجولة الكاملة ، ولأنها في الجملة ذات أغراض عالية ، وأهداف أرفع

* * *

وقبل أن نخوض في تفاصيل نشوء الدرامة الإنجليزية ، نرى أن نلم شعث هـذا البحث الطويل المتشعب في مجالة قصيرة نستعين بها في ضبط الموضوع كله ، وإليك هذه المجالة :

١ — نشأت الدرامة الإنجليزية في طورها الأول في ظل الكنيسة ، وكانت تنقسم في ذلك الطور البدائي إلى قسمين ، أو إلى نوعين : الأول ، النوع الإنجيلي ، أو السمعي ، وكانت موضوعاته وشخصياته مستمدة من الإنجيل أو الكتاب المقدس بوجه عام . ويسمى هذا النوع بالإنجليزية : Mysteries . أما النوع الثاني فهو القديسي أو الكرامي . وموضوعاته وشخصياته مستمدة من حياة القديسين المسيحيين وكراماتهم ولذلك سماه الإنجليز Miracle Plays

٢ — أما الطور الثاني فهو الطور « النقابي » ، وهو الذي كان يتولى جميع شئون التمثيل فيه نقابات Gilds أو Guilds من أصحاب الحرف المختلفة ، وكانت معظم دراماتهم من النوع القديسي أو الكرامي

٣ — ثم الطور الأخلاقي ، وهو الذي ينسخ الدرامات الإنجيلية والقديسية ويحل محلها درامات أخلاقية أبطالها وموضوعاتها الفضائل والرذائل ، لا زيد ولا عمرو ، فيلبس رجل لباساً شنيع الهيئة ليمثل الشر ، ويلبس رجل آخر لباساً جميلاً ليمثل الخير ، وهلم جرا ، ويدعي النقاد الإنجليز المسرحيون المحدثون أن المذهب التعبيري الذي قام في ألمانيا قبل الحرب الحاضرة إنما قام على أنقاض هذا الطور الأخلاقي من أطوار نشوء الدرامة الإنجليزية ، وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا على المسرح الألماني ، وسوف نعود إليه إن شاء الله في حينه . وقد نشأ إلى جانب الدرامات الأخلاقية أو ال Moralities كما يسمونها نوع مستقل فكاهي من قبيل (الفواصل) المضحكة التي تعمل في الحفلات عندنا ، ولذلك فهم يسمونه : Interludes . ولا بأس من الإشارة في هذه العجالة إلى أن النوع الأخلاقي إنما نبتت جذوره في النوع الإنجيلي ، وذلك لأنه يمثل الجد والوقار والاحتشام الذي يقتضيه الدين ويلازم كل ما له علاقة بالكتاب المقدس . وأن نوع الفواصل إنما نبتت جذوره في النوع القديسي أو الكرامي ، لأنه يمثل الهزل ويعنى بالتضحيك والسخرية

٤ — أما الطور الرابع فهو طور المأساة العظيم الذي شق للأدب الإنجليزي طريقة إلى تسنم الذروة بين الآداب العالمية جمعاء

ويلاحظ في هذا التطور أنه يشبه إلى حد بعيد تطور الأدب المسرحي عند اليونان القدماء ... ذلك الأدب الذي لخصناه لقراء الرسالة منذ ثلاث سنوات .

الطوران الأول والثاني

لما كانت أغلبية الشعب الإنجليزي أغلبية أمية لا تقرأ ولا تكتب ؟ ولما كان كتاب هذه الأغلبية المقدس مكتوباً لها إما باليونانية أو اللاتينية ، وذلك قبل أن يترجم إلى الإنجليزية ، فقد كان رجال الدين يلقون الأمرين في تلقين الشعب مبادئ

دينه ، كما كان يتعذر عليهم تلقينهم قصص التوراة وقصص الإنجيل ، مما لا بد لكل شعب متدين أن يلم به ، لما فيه من العبرة والموعظة الحسنة ، ولما له من الأثر فى غرس محبة الدين فى القلوب المؤمنة ، والتغلغل به فى سويداواتها ... من أجل ذلك اضطر رجال الدين إلى استخدام التمثيل وسيلة فذة لبلوغ أربهم إلى ألباب الشعب والوصول فى سرعة ويسر إلى تثقيفهم بثقافة كتبهم المقدسة فنجحوا فى ذلك نجاحاً باهراً على الرغم من أن جميع الدرامات الإنجيلية Mysteries التى كان يمثلها القسس أنفسهم فى البيع والكنائس إنما كانت تمثل باللغة اللاتينية ، تلك اللغة التى كان الشعب قليل الإلمام بها ، حالة مسلمى الترك والهند والصين وجاوة اليوم باللغة العربية . وكان القسس يحافظون بقدر المستطاع على حرفية الكتاب المقدس فى التمثيل ، وإن كانوا أحراراً فى اختيار الملابس التى يرونها لائقة ووافية بالغرض . ولهذا لم تكن الدرامات الإنجيلية تصادف من النجاح وإقبال الشعب ما كانت تصادفه الدرامات القديسية أو الكرامية المستمدة من حياة القديسين وكراماتهم الخارقة ، لما كانوا يتمتعون به من حرية فى صوغ الحوار وتكييف الحوادث تكييفاً يسهل خلق الجو المسرحى ، ويطلق العنان للمبالغة فى الأداء لضمان السيطرة على ألباب الجماهير والضرب على أوتارهم الحساسة ، ثم لما فى الخوارق من عناصر الخيال والخروج على مألوف الحياة العادية مما يضمن نجاح ذلك النوع من التمثيليات بالقدر الذى لا يتفق للتمثيليات الإنجيلية . أما أمثلة الدرامات الإنجيلية فكثيرة . وهى تشمل كل ما جاء فى الكتاب المقدس من قصص رائع معروف من الجميع

أما الدرامات القديسية Miracles فقد زاد فى نجاحها وضاعف من إقبال الجماهير عليها أداؤها بلسان الشعب باللغة الأنجلوسكسونية ، وكان ذلك لأول مرة إبان حكم الملك إدورد الثالث (١٣٢٧ — ١٣٧٧) أى فى منتصف القرن الرابع عشر على وجه التقريب ، وهو التاريخ الذى يعتبر بحق فجر النهضة التمثيلية فى انجلترا . وكان لهذه الدرامات مواسم تمثيلية تشبه ما كان عند اليونان منها . وكانت هذه المواسم هى الأعياد الدينية بوجه عام مثل : عيد الميلاد ، وعيد الفصح أو عيد القيامة Easter وأحد العنصرة أو الـ Whitsuntide وعيد الجسد أو القربان المقدس Corpus Christi . ولا غرو أنه كانت هناك مناسبات خاصة لتمثيل هذه الدرامات ، فمن ذلك حفلات الزفاف واستقبال الملوك وقيام الحجاج إلى الأراضى المقدسة والمناسبات السياسية وتدشين البنايات الهامة ... الخ ...

ويمضى الزمن ، ولشدة إقبال الناس على التمثيل ، بحيث لم تعد هيئة الإكليروس كافية للقيام بتمثيل مئات الدرامات التى ظهرت بناء على قانون العرض والطلب ، انتقل زمام التمثيل من أيدى القسس إلى أيدى رجال النقابات Guilds التى كانت تمثل الطوائف المختلفة للعمال . وهذا هو الطور الثانى الذى ازدهر فيه التمثيل الإنجليزى أيما ازدهار ، وذلك لروح التنافس بين هذه النقابات ، ولما كانت تلك الطوائف تنفقه من المال والجهد والعناية وتحرى أصول الإخراج لتبلغ دراماتها القديسية حد الإتقان ، ولما حدث بعد هذا من التنافس بين المدن الإنجليزية للوصول بتمثيلياتها إلى حد الكمال . فهذه لندن ، وتلك دبلن ، ثم يورك وشستر وكوفنترى ولانكاستر ... وكل المدن الكبيرة وكثير من أمهات القرى الإنجليزية ، تبذل من العناية والمال فى ذلك ما كانت تبذله أثينا وغير أثينا من مدن اليونان القديمة . بل ربما زادت عليها كثيراً

وكانت كل نقابة تصنع مسرحاً متحركا فوق عجلات أربع أوست ، مركب من طابقين يستعمل المثلون السفلى منهما لتبديل الملابس ولعمل الدمام (المكياج) وتؤدى التمثيليات فى الطابق العلوى . وكانت هذه العربة أو الـ Pageant تطلى بألوان غريبة تلفت النظر ، وكانوا يستعينون على تكوين المناظر بوسائل فجة ، فكان السحاب مثلاً يرمز إليه بأقمشة داكنة أو بيضاء حسب المنظر المطلوب . فإذا كان المراد أن يبرز ملاك من بين السحب انفجرت سحابتان وبرز من بينهما تمثال خشبى لهذا الملاك ؛ أما الشجر فكان يمثل بأشجار اصطناعية ، وكذلك البيوت والمدن والقلاع والحصون . كما كان يرمز إلى الجحيم بوجه كبير مسخ ، ذى أنف أحمر ضخم ، وفم مهول تبرز منه أنياب مرعبة متحركة . أما العينان فكانتا كُوَّتين كبيرتين فى هذا الوجه ، وكان يوضع خلفهما مشعلان فينفذ اللهب من الفجوتين فيضاعف فى شناعة ذاك الوجه . وكانوا يستعينون ببرميل ضخم يطبلون داخله بآلة لأحداث صوت الرعد ، أما العواصف فكانوا

يحدثونها بنفخ قرب كبار تشبه منفاخ الحدادين ، ثم يسلطون الهواء المنبعث منها على أقمشة رقيقة فتومض الأثر المنشود

وكانت الجياد تجر هذا المسرح من حى إلى حى ، ومن ملتقى شارع كبير بشارع كبير آخر ، ومن ميدان إلى ميدان . وفى كل من هذه (المواقف) تمثل رواية من تلك الروايات القديسية فيجتمع الناس ، ويتزاحم الشعب بالمناكب ، ويتركون متاجرهم مدفوعين بعامل حب الاستطلاع ، والتفرج بالمجان بهذه الفُرَج المليحة التى تنشر الهدى ، وتسكب النور فى ظلمات القلوب ، وتفتح أبواب الجنة للضالين ، على حد ما وصف أحد القسيسين تلك المسارح . وكان الجمهور لهذا السبب ينتظر أعياده ويرتقبها بصبر فارغ وتشوف عظيم ، ليتمم بشهود تلك الدرامات التى يلتمس فيها مُثُله . وكان التمثيل يبدأ قبيل العيد بأيام وينتهى بعيده بأيام أخرى ، ولذلك فطالما كانت الأعياد الدينية تتقلب فتكون مواسم تمثيلية يتثقف بها الشعب ويتصل فيها بالقديسين والشهداء من أبطاله الدينيين اتصالاً وثيقاً . وكانت النقابات تبتكر الوسائل الممكنة للحصول على المال الذى هو عصب كل مشروع يرجى نجاحه ، فلما آنست من الناس هذا الإقبال على شهود دراماتها ، لم تر ضيراً فى أن تنتهز تلك الفرصة لتعرض مشروع (المزاد التمثيلى !) وكان ذلك فى سنة ١٤١٧ فالحى الذى يعطى مزاداً أضخم من الحى الآخر هو الذى يفوز بتمثيل الروايات فيه ، والمنزل الذى يهب النقابة مبلغاً أكبر هو الذى يسعد بوقوف المسرح المتنقل قريباً منه ليسهل على أهله التفرج والاستمتاع فى هدوء وراحة وإدلال على الناس

وقد وفّقت النقابات إلى تنظيم العمل فيما بينها ، وتقسيمه تقسيما لا يضر بكيانها ، ذلك الأضرار الذى يسببه التنافس أحياناً مهما يكن تنافساً شريفاً مشروعاً . وكان يراعى فى ذلك التقسيم أن تتناسب الدرامات ونوع المهنة التى تمثلها النقابة ، ففى عيد الفصح Easter تمثل نقابة الدباغين درامة « سقوط الشيطان » The Fall of Lucifer ، وتمثل نقابة تجار الأقمشة درامة « الخلق والسقوط » Creation & Fall فى حين تمثل نقابة السقائين أو نقابة صيادى السمك دامة « طوفان نوح » . وكانت بعض هذه الدرامات تنال من استحسان الجمهور ما يقتضى استمرار عرضها وتمثيلها مرات متتالية أياماً متوالية ، فقد حدث أن استمر عرض رواية « أمور من قصة خلق العالم » ثمانية أيام متتالية ، وذلك فى عهد الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٩ فى حى إسلنجتن بلندن . ولم تكن هناك أية عناية أو احتفال بالمناظر المسرحية المعروفة اليوم ، فى حين كانت العناية الفائقة قاصرة على الملابس ، والأدوات التى لم يكن بد من استعمالها أثناء الأداء ، فهنا كانت النقابات تنفق عن سعة ، ففى رواية « يوم العدالة » مثلاً ، وهى من أكثر الروايات فى الممثلين عدداً ، كان الممثلون الذين يؤدون دور « العاصين من أهل جهنم » يرتدون ملابس من الكتان صبغت بالأصفر والأسود والأحمر إشارة إلى الألوان السائدة فى الجحيم . أما الممثلون الذين يؤدون دور « الأرواح السعيدة الناجية » فكانوا يرتدون ملابس بيضاً من الجلد الرقيق الدبوغ ؛ وإذا تصورنا عدد أولئك الممثلين فى مثل هذه الرواية ، أدركنا المبلغ الضخم الذى كانت تصل إليه أثمان ملابسهم المصنوعة من تلك الجلود الغالية ، وذلك بالإضافة إلى أجور الممثلين التى كانت تتراوح بين أربعة عشر بنسا وأربعة شلنات ، وهى تسوى عشرة أضعافها بعملتنا الحاضرة ...

ومن الروايات التى كان إخراجها يتكلف كثيراً من النفقات نوع تذكرى يسمى الماسك Masques ومنه النوع التذكرى الإنجليز المسمى Disguising والذى كان الممثلون يرتدون فيه أغلى أنواع الملابس وأشدها بريقاً ولمعاناً ـ وقد أتى هذا الطراز إلى انجلترا من إيطاليا ثم انتشر فى عصر الملك إدورد الثالث ، ثم ألف فيه المسرحي الإنجليزى العظيم بن جونسون الروائع والغرر

ولعل أقدم الدرامات القديسية التى وصلتنا من هذه العصور هى تلك الدرامة المسماة « القديس نيقولا » St. Nicolas والتى ألفها باللاتينية أديب إنجليزى من أدباء القرن الثانى عشر اسمه هيلاريوس وقد أهداها إلى كنيسة القديس المسمى باسم درامته . وملخصها : أن رجال الكنيسة فى عيد هذا القديس يرفعون صورة القديس نيقولا من موضعها فى الكنيسة ، ثم يجلس فى مكانها ممثل بارع يستطيع أن يضبط حركاته ويحبس أنفاسه بحيث يظن من يراه ، بل يتأكد ، أنه تمثال وضع هناك للقديس صاحب الكنيسة ؛ وحينما تنتهى الصلاة وتعقبها تلك